البحث عن منهج عربي في الأدب والنقد

*هالة أبايزيد بسطان Email:hala9938@gmail.com
كلية الآداب–جامعة أم درمان الأهلية

المستخلص:

إن قضية البحث عن منهج أو وجهة تقعيدية , لايعوزها الحس والذوق الفني , هي روح الحياة النقدية وكيانها , في كل فكر وخاطر نقدي , أينما ولد إبداع إنساني فني . والقضية عند النقاد العرب المحدثين ملحة ؛ لاسيما بعد أن هجروا المنهج العربي القديم وسايروا المناهج الأوروبية الحديثة سعياً , وراء التطوير والتحديث , بل التغيير الجذري . فبعدما رسخوا جذور هذه المناهج النقدية في الوجدان الحداثي العربي , طيلة النصف الأول من القرن العشرين , جدُّوا في البحث عن منهج عربي في الأدب والنقد , واستنفروا الهمم النقدية للنهوض بهذا العمل التأصيلي . ولقد أردنا في هذه الدراسة , الوقوف على نماذج من تلك الجهود النقدية , لفتح باب الحوار والنقاش والخلاف مرة أخرى , بعدما أخذت القضية طريقها نحو الفتور , إن لم يكن الموات . فاستأنسنا بآراء عدد من نقاد العرب النابغين , في النصف الثاني من القرن العشرين , وأثبتنا موقفنا مما قالوا ؛ محاولين ترسم منهج أومسلك للخروج من مأزق البحث عن منهج تأصيلي للنقد العربي الحديث .

Abstract:

The issue of seeking a curriculum or a rig visionary that does not lack taste nor artistic appreciation, is the sole and core of criticism life. In each thought and critical whim , and Where ever an artistic human creation is born. The issue to Arab modern critics is demanding .Especially after they deserted ancient Arabic curricula; they followed European modern curricula running after modernization and progression and – or an up-rootal change. After solidly imposing these criticism curricula into the Arabic modern emotion, during the first half of the twentieth century, they seriously sought an Arabic curriculum of literature and Criticism .They recruited all critics' aptitudes to support this authentic work. In this study the researcher wanted to investigate these criticism efforts to launch a debate and discussion once more. Seeing that the issue is thinning out if not dying. The researcher also made use of a number of prominent Arabic Critics of the second half of the 20th century .pin-pointing the researcher stand to what they said, and trying to draw a curriculum or a way out of such a research dilemma of pursuing an original curriculum for modern Arabic Criticism.

الكلمات المفتاحية : الحداثة النقدية – التأصيل – العِلْمية – الخَلْق

المقدمة:

كان النقاد العرب المحدثون قد عكفوا في النصف الأول من القرن العشرين على استيعاب الحضارة النقدية الأوروبية الحديثة , وألحُّوا –كثيراً أو قليلاً – على حتمية إلحاق النقد العربي بقطارات الحداثة , المتمثلة في المذاهب النقدية الأدبية الأوروبية الحداثية . فهرعوا إلى تفسيرها وتحليلها , وجَدُّوا في ترجمة أصولها من لغاتها الأم إلى لغتنا العربية ؛ بغية إرساء دعائمها وتوثيق فهمها وتذوقها , مستهدفين بذلك الأدب ومتذوقيه . وبعد أن صالوا وجالوا ولجُّوا في خلافات الطرح والتفسير , ووسائل ربط ما لدينا بما لدى غيرنا , صمتوا برهة مستفهمين عن إمكانية صناعة منهج أو مناهج حداثية أصيلة للأدب العربي , ومدارس نقدية تُأصل خطاه وتقوِّم توجهاته .

حدث ذلك في النصف الثاني من ذات القرن لدى مجموعة من النقاد النابهين الحانين على النقد العربي , (حُنوَّ المرضعات على الفطيم) غيرة على عروبة عبقريتهم النقدية والأدبية . فماذا كان ؟

الدراسة:

محمد غنيمي هلال كان من أولئك النقاد الباحثين عن عروبة المنهج النقدي الحديث , في بحثه عن مذهب عربي يحمل قضايا الأدب , ويكون مرآة للأدباء والنقاد العرب المحدثين , يعكس نتاجهم الأدبي والفكري . في مقال له بعنوان : هل لدينا مذاهب أدبية1 , يتهم نزعات التجديد في مطلع القرن العشرين بالقصور وفتور الهمة مع اعترافه لنتف من ذلك التجديد ببعض الفضل , كما فعل مع رواد مدرسة الديوان , العقاد وشكري والمازني إذ قال : (كان لهؤلاء الفضل في توضيح معنى الخيال , وأنه إنتاج الصور الصادقة , وهي السبيل إلى وصف أعماق النفس وحقائق الكون ... وقد دعوا جميعا إلى ضرورة الاطلاع على الآداب العالمية لاستكمال النواحي الفنية في الأدب القومي)2. ويبدو أن هذه الفضيلة الأخيرة – كما يراها هلال – هي التي قدمتهم عنده , فهو من الذين استبسلوا قتالاً في سبيل توطيد دعائم النقد الأوروبي قديمه وحديثه , في الوجدان النقدي العربي الحديث , وكل نتاجه النقدي قد انصب في تحقيق هذه الغاية النبيلة عنده . وقد أفلح فلاحاً عظيماً وأصبحت مؤلفاته المرجعية التي لاتخطئ , والمنهل الأول للبحث عن جذور الحداثة النقدية العالمية . لذلك تجده يجل الناقد المستبسل وراء هذه القضية . أما فضل رواد الديوان في توضيح معنى الخيال , فيرجع لا إلى فطنتهم النقدية وإنما إلى ترجمتهم عن كولردج ومن قال قوله في تعريف الخيال والتمييز بينه وبين الوهم , وليس كما يوحي هلال بأنه تفسير خاص بهم . وتحيز هلال لمدرسة الديوان يظهر في عدد من المواطن في مؤلفاته النقدية . أما اتهامه لحركات التجديد في الوطن العربي عامة وفي مصر خاصة , فيتركز حول نقده للعلاقة بين الأدباء والنقاد ؛ إذ أن ضعف هذه العلاقة ينتج عنه ضعف الروح النقدية الحقة , وعدم تمكن النقد من أداء مهمته بصورتها المثلى . ويوجه اتهامه كذلك لمحور آخر ذي صلة , وهو ضعف التلاقي الثقافي بين الأدباء والجمهور المتلقي أو المتذوق للنتاج الأدبي على اختلاف أجناسه , ويُرجِع السبب في ذلك إلى عدم تشرب النهج الأدبي والنقدي الأوروبي , المتمثل في المذاهب النقدية الأدبية وعدم وعي الثقافة والحضارة الأدبية النقدية التي وعتها هذه المذاهب , والتي بنيت على التلاقي الواعي بين الأديب والناقد من جهة , وبينهما والجمهور من جهة أخرى ؛ فثلاثتهم يمثلون بؤرة التطوير والتحديث الأدبي وقتما كان وأينما كان . فتلك المساحات اليابسة بين ثلاثتهم التي أشار إليها هلال , كانت السبب الجوهري في عدم مقدرة الأدب والنقد العربي على صناعة مذاهب أو مذهب واحد , على شاكلة المذاهب الأوروبية . فلو أن الأدباء والنقاد العرب المحدثين حذوا حذو نظرائهم في أوروبا خطوة بخطوة – كما يرى – لأفلحوا في إنشاء ذلك المذهب الموحد والمحدد المعالم . يقول : (إن أكثر الكتاب الخالقين عندنا ليسوا بنقاد , ولا يعنون بالنقد , بل يهونون من شأنه والقائمين به . وهذا على خلاف ما ألفنا في المذاهب الأدبية العالمية , إذ أن كل كبار الكتاب لديهم , نقاد في وقت معا . ومهمة النقد الحديث شرح وتعليل , ثم توجيه يدعمه الشرح والتعليل , ولاغنى لمن يريدون أن يطلعوا بأعبائه من الإحاطة بالميراث الفكري والفني في مصادره الكبرى العالمية . وهذه الجفوة بين الكتاب والنقاد عندنا أسفرت عن فجوة فاصلة بين الإنتاج الأدبي والوعي العام الإنساني به لدى الجمهور مما أدى إلى بلبلة عامة في فهم الأعمال الأدبية الناضجة وتقويمها تقويما كاملا صحيحا . ومهمة وصل أدبنا ونقدنا

بالآداب العالمية – على وجه كامل – تتطلب جهدا كبيرا , إذ علينا أن نقطع في فترة نهضتنا الأدبية القصيرة ما قطعته الآداب الكبرى العالمية في قرون طويلة تلافيا لتخلفنا طوال هذه القرون)3 .

ولهلال الحق في قضية اختفاء الأديب الناقد ولكن هذا الاختفاء ليس مطلقاً أو لايصل إلى حد الانعدام , لأننا نجد مثل هذه النماذج كما كان مع طه حسين , ورواد الديوان, ورواد المهجر , ومعاوية محمد نور , وعبدالله الطيب المجذوب , وغيرهم في مختلف البلدان العربية . إلا أن الجهود الفردية دائما يلزمها تضافر جماعي بنّاء . وإذا كان هلال قد ركز اتهامه على الجفوة بين الأدباء والنقاد ورأى أنها بسبب فقدان الأديب الناقد , وأدى ذلك كله إلى فقدان المذهب الأدبي العربي , فإن غيره قد عزا الأمر إلى استقلالية الأعمال النقدية الناتج عن استقلالية الأعمال الأدبية . أي أن الجفوة كائنة بين النقاد بعضهم وبعض من جهة , وبين الأدباء بعضهم وبعض من جهة أخرى .. فعلى الرغم من توافر الأعمال الأدبية والنقدية في القرن العشرين , إلا أنها لم تستطع أن تتخذ موقفا موحدا من الأدب والحياة والناس . أو فلنقل عدداً من المواقف وإن تباينت ؛ فالتباين هو أس التطور والبحث عن الجديد فالأجد . يقول بدوي أحمد طبانة متحدثاً عن هذه الوفرة في الإنتاج النقدي (... ولكن تلك الآثار النقدية على كثرتها , وعلى تنوع مؤلفيها , لاتصلح أن تكون أصلا ثابتا يرجع إليه في نقد الأدب المعاصر أو سواه , لأنها آثار متباينة , يتجه كل منها اتجاها خاصا , وينظر إلى الأعمال الأدبية من زاوية خاصة , وقد يكون فيها بعض الصفاء , ولكن فيها من غير شك كثيرا من السحب والضباب الذي يحول دون الرؤية الواضحة والتقدير السديد . والسبب في ذلك أن الأدباء أنفسهم قد تباعدت اتجاهاتهم وتباينت مناهجهم , واختلفت مبادؤهم ومثلهم حتى أننا نستطيع أن نعد كل أديب مدرسة فنية وحده , هو بطلها الذي يخطط معالم المذهب , وهو الذي يتولى الإعداد والتصميم والتنفيذ)4 .

هذا .. إذا جاء رأي هلال في العقد السادس من القرن العشرين , وجاء رأي طبانة في العقد الثامن منه , فهناك آراء أخرى مشابهه أو مكملة تدور حول ذات الإشكال ظهرت في العقد الأخير من القرن . أي أن القرن قد انقضى في البحث عن هوية مذهبية , ولا نرى بأن الأمر قد أنجز إلى يومنا هذا . من تلك الآراء ماجاء عن حسن مخافى , من أن العقدة تكمن في ازدواجية المرجعية النقدية والأدبية , ويقصد الركون إلى التراث العربي بجانب النقد الغربي , أو ازدواجية الأصالة والحداثة التي أضعفت من أدواتنا النقدية بدلا من أن تقويها , وذلك بسبب التنازع بين الاتجاهين , فيقرر أولا : (أن مصداقية أي عمل نقدي تبرز من خلال جانبين متكاملين هما بناء نظرية نقدية متماسكة , ونجاعة أدواته الاجرائية عند اقتحام النصوص الأدبية

...)5 وهنا يتفق حسن مخافى مع غنيمي هلال وبدوي طبانة , ومع الواقع النقدي في عدم مقدرة هذا الواقع على تكوين مذهب أدبي نقدي , ويتفق مع طبانة في توافر الأعمال النقدية دون أن يخدم ذلك نظرية نقدية محددة . يقول : (وإذا حاولنا النظر إلى النقد العربي الحديث من هاتين الزاويتين _ النظرية النقدية والأدوات الاجرائية _ فإنه يمكن أن نسجل عليه عجزه عن صياغة نظرية نقدية خاصة به , وهذا ما يفسر الإهمال الذي يلاقيه التنظير النقدي في الوطن العربي . فإذا استثنينا بعض المحاولات القليلة التي تهتم بالمذاهب الأدبية وبعض المشكلات الفنية والتي ظلت في مجملها تخضع لمواصفات آيدلوجية تتزرع بعالمية العمل الأدبي والنقدي , فإن النقد العربي لايهتم بالتنظير إلا في حدود ضيقة , ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا النقد يعتمد ما يمكن أن نسميه التنظير الجاهز الوافد من الغرب)6 . وبالطبع فإن هذه السمة

الأخيرة كانت ولاتزال هي المصدر الأول للنقد العربي ؛ فمازلنا نركن لقديم المذاهب النقدية ولكل مايستحدث في كل عام وكل يوم . ويواصل مخافى قائلا : (وبالمقابل فإن في هذا النقد العربي الحديث غزارة في الأعمال النقدية التي تتعاطى للأعمال الأدبية , وعلى الرغم من أن ذلك قد وفر له تراكما نقديا إلا أن هذا التراكم كمي وليس نوعيا . وذلك أن المتأمل في المسار النقدي العربي الحديث يكتشف أن هناك حلقات مفقودة في هذا النقد ولا أدل على ذلك من أن ظهور بعض الاتجاهات النقدية واختفاء أخرى , لايخضع لمنطق داخلي يحكم هذا النقد وينبثق من طبيعته , وإنما يبدو استلهاما ونسخا له وهذا مايجعل النقد العربي الحديث نقدا انقلابيا لايوحي انتقاله من تصور نقدي إلى آخر بأنه انتقال طبيعي بقدر ماهو جري من أجل ملاحقة ماستجد من النقد الغربي , وهكذا أصبح النقد العربي الحديث عبارة عن جزر متقطعة لاتواصل بينها ومن ثم فإنه في أغلبه نقد تجريبي ... وهذا يؤدي إلى تسجيل نقطة ضعف أخرى على هذا النقد تتجلى في عدم اهتمامه بنقد النقد . وهذا المجال من الدراسة هو عبارة عن وقفة تأمل تتم فيها مراجعة الآثار النقدية , قصد العمل على تجاوزها من جهة , والإمساك بالخصائص التي طبعت مرحلة معينة مما يسمح بامتلاك الأداة النظرية في النقد من جهة ثانية . وكما أن النقد العربي الحديث أصبح لأسباب كثيرة نقدا هجينا بفعل ازدواجية مرجعيته فإنه أيضا نقد عقيم لاينتج استمرارية ... ومرد ذلك إلى الحيرة التي تستولى على النقاد بين أن يواكبوا الحركات النقدية العالمية وبين أن يواكبوا التحولات التي يعرفها واقعهم , وبين أن يستلهموا تراثهم النقدي)7 .

وبناء على هذه الآراء وغيرها مما تنحو هذا النحو , فإن المشكلة بل المعضلة النقدية التي تنبهوا لها منذ ستينيات القرن العشرين مازالت قائمة , على الرغم من ظهور فئات من النقاد عملت فيما دعوا إليه , إلا أن أعمالهم لاتصل إلى نهاية مبتغاها لعدم تضافر جهود النقاد, وللفردية والاستقلالية التي تسيطر على الجو النقدي . ولا نتوقع أن يصير للأدب والنقد العربي منهج أو مذهب , دون هذا التضافر الذي يجب أن يغذى بالغيرة واستشعار المسؤولية تجاه عروبتنا بغية الحفاظ على حضارة الأمة . وقضية نقد النقد التي تحدث عنها مخافى هي موجودة منذ بدء حركة التجديد النقدية غير أن آفتها كذلك الفردية , فمحمد غنيمي هلال نفسه كان أحد الذين طرقوا هذا المجال في عدد من مقالاته في كتابيه : قضايا معاصرة في الأدب والنقد , وفي النقد التطبيقي والمقارن . وفي الثمانينيات كانت قد عقدت ندوات أدبية نقدية من قِبل مجلة فصول وهي مجلة نقد أدبي متخصصة , من تلك الندوات واحدة بعنوان : مشكلة المنهج في النقد العربي المعاصر8 , اشترك فيها عدد من النقاد بالنقاش والحوار , وهم : شكري عياد , عبدالمحسن طه بدر , بدر الديب , صبري حافظ , عزالدين اسماعيل , وجابر عصفور . وتمحورت هذه الندوة حول الاستفهام الذي أثاره هلال من قبل : هل لدينا مذاهب أدبية ؟ كما أنها شكل من أشكال النشاط النقدي الجماعي , الذي يهتم بنقد النقد ومنهجة الأدب والنقد . وقد أُثيرت فيها عدد من الموضوعات الملحة نقدياً آنذاك – ومازالت – كمهمة النقد المعاصرة, ومشكلة المسلمات النقدية الراسخة منذ بدايات ثورة التجديد , دونما اعتبار لما يطرأ من متغيرات في الحياة والمجتمع , ومشكلة التراكم الكمي للأعمال النقدية , ومشكلة ضعف المستوى الثقافي لدى الجمهور المتلقي لاسيما الثقافة الأدبية والنقدية والفنية , ومشكلة سطحية التناول النقدي , ومشكلة عدم تلاقي الأعمال النقديةفي نقطة واحدة , أو عدد من النقاط لكي تمثل طريقاً أو منهجاً محدد المعالم , وغيرها من المشكلات التي أُثيرت داخل إطار مهمة النقد المعاصر . غير أن أعمال الندوة اكتنظت بطرح التساؤلات التي كنا ننتظر الإجابة عنها ولو إجابة جزئية , وقد تكون الإجابة عن تلك

التساؤلات هي ذاتها الطريق المنتظر , وليس بالضرورة أن تأتي من قبل هذه النخبة من النقاد فقط , وإنما عن طريق المجتمع النقدي مجتمعا ؛ كل بما يدلي به , على أن تتلاقى آخرا في مصب واحد هو المنهج الأدبي العربي المعاصر الذي يسانده منهج نقدي لايقل عنه وضوحاً إن لم يزد عليه . وقد آل الأمر إلينا اليوم –القرن الحادي والعشرون– في الساحات النقدية لفسح المجال للإجابة عن تلك التساؤلات القديمة الجديدة ومازال أدبنا ونقدنا ينتظران قوالب عربية منهجية تأصيلية .

وفي إطار قضية نقد النقد نود أن نورد ماقاله عزالدين إسماعيل في هذه الندوة الهامة ,

موضحا لعدد من آراء المشاركين ومضمنا رأيه في كيفية ربط العمليات النقدية الفردية المعاصرة بعضها ببعض . قال : (... إن المهمة الملحة للناقد العربي اليوم , هي خلق نوع من الترابط , على الأقل بالنسبة لنتائج الحقبة الحديثة باعتبارها وحدة ثقافية وحضارية متصلة الأجزاء والحلقات . وإذا كان كل واحد من الذين ظهروا على خريطة النقد الأدبي منذ مائة عام إلى اليوم , يصنع بنفسه جزيرة فيها من الخيرات مافيها , ومن غير الخيرات كذلك , فإن فكرة إعادة ربط الخيوط بين المتفرقات تؤدي إلى أن طريقة من الطرق التي يمكن أن نكون مطالبين بها الآن هي أن ننشيء الجسور أولا بين هذه الجزر المختلفة لنصنع منها أرضا واحدة , وهذه ناحية , أما الأخرى فهي إعادة تقييم النتاج الذي تم في هذه الحقبة ورسَّب مفاهيم ظلت تتداول جيلا بعد جيل , على أنها منتهية وأنها حقائق ثابتة . وفكرة إعادة النظر هذه يمكن أن توصلنا إلى تقييم أشمل وأعم توضع فيه أيضا هذه الجزر المتفرقة في حيزها وفي مكانها الصحيح ...)9 ويعقب شكري عياد : (هذا مايسمى بالـ Metacriticism أي النقد الذي يتناول النقد وهذه تعد مهمة فعلا) .

هذا .. ولقد قامت قبل ذلك وبعد ذلك مجموعة كبيرة من الدراسات في محور نقد النقد في مختلف البلدان العربية محاولة لتقويم الموقف النقدي العربي , ومنها على سبيل المثال : نقد الشعر في السودان حتى بداية الحرب العالمية الثانية لعزالدين الأمين , أوليات النقد الأدبي في اليمن 1939–1948 لعبدالعزيز المقالح , حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين لهاشم ياغي , التيارات المعاصرة في النقد الأدبي لبدوي طبانة ... وغيرها كثير . ولكنها على قيمتها وروعتها في الجمع والتفسير والتحليل ماتزال كما قال عزالدين إسماعيل جزرا متفرقة ؛ فلقد صَوّرت هذه المؤلفات مابين 1973–1999م – النصف الثاني من القرن العشرين– مايشير إلى أن القضية مازالت قائمة منذ أن طرح غنيمي هلال استفهامه وظلت إلى اليوم . فهل لدينا مذاهب أدبية ؟ وهل سيستمر النقاد في إلقاء اللوم بعضهم على بعض ؟ وما الإشكال الجوهري في الإحساس بالتوهان الفكري والنقدي ؟

والظن أنْ ليست القضية كما تصورها هلال من عدم وعينا التام بكيفية مسيرة المناهج أو المذاهب الأدبية عند أصحابها , وليست كذلك فقط في الافتقار لاتحاد نقدي فكري يوجه الحياة

الأدبنقدية , وإنما في أننا مانزال تحت تأثير مارسخه نقاد القرن العشرين العرب أصحاب هذه الدعوة أنفسهم , في مستقر إدراكنا ووعينا بأننا أتباع لما كان وما سيكون من مناهج غربية . وإذا كان الأمر كذلك فما حاجتنا للبحث عن عنوان آخر لواقعنا النقدي . فمازلنا ندور في الفلك الغربي دون فكاك , ولم يغير اختلاف الزمان والمكان كثيرا في أصل ما اتبعناه من مناهج مرسومة. فهل ركضنا وسعينا وجهدنا للغور في تلك المذاهب لنأتي الآن ونبحث عن أخرى ؟! وإذا أردنا هذا المنهج الْمُميِّز لجهدنا الأدبنقدي , لماذا ألقينا كل أثقالنا على محطات المذاهب الغربية وقطعنا الوقت كل الوقت في تبجيلها وإعلاء كلمتها

وفرضها على قديمنا وحديثنا ؟! ومعلوم في أبجديات التاريخ أن طريق التبعية لايوصل إلى أي قدر من التحرر والاستقلال . فاستيعاب هذه الأبجدية أو التنبه لها هو أول خطوة في طريق البحث عن الهوية النقدية الفكرية , وإلا ستظل دوامة الفكر الغربي تعبث بنا , وسنظل قيد الإحساس باللاوجود واللاكيان واللاهوية مهما جهدنا في البحث عن منفذ مضيء .

هذا .. والتحرر من تبعية الفكر الغربي النقدي , لاتعني إتياننا بما لم يخطر لهم على بال في التنظير والتحليل ومنهجة الأدب , ذلك أن التلاقي الفكري الإنساني أمر لامناص منه ؛ فبقدر مانتوصل في نقدنا العربي إلى مناهج وتيارات , حتما ستتصب في بعض القوالب المذهبية الغربية الحديثة , طالما أنها سبقتنا في الظهور . ليس لأننا نقلنا عنها , ولكن لأن الفكر الإنساني أجمعه والمزاج الشعري والتوجه النقدي لامحالة غير منفصل بعضه عن بعض وإن حرصنا – فطرة الله التي فطر الناس عليها , لاتبديل لخلق الله وقديما قد اُبتُلِيَ الشعر والنقد العربي في عصوره المجيدة بالانشغال بلا طائل بهذا التلاقي في الشعر وولَّد عندهم قضية أخذت من زمان الإبداع النقدي أكثر مما يحق لمثلها ؛ هي قضية السرقات الشعرية . إذن علينا ألا نهاب فكرة التلاقي الفكري الأبدي , وألا نهاب التقارب أو حتى التطابق بين مانقول ومايقول الآخرون ؛ لأن هذا التلاقي من جهة , ومجال التأثير والتأثر من جهة أخرى هي من أهم مايثري صفحات النقد في مسيرة التطوير والتحديث . فعلينا أن نضع نصب أعيننا أن الفكر الإنساني حلقة متصلة في تاريخها وحاضرها ومستقبلها , فاللاحق دوبا ودوما آخذ بأذيال السابق . والرحلة من أرسطو مرورا بالتراث العربي وصولا إلى العصر الحديث تثبت تداخلات الفكر الشائكة إيجابا والتي أثمرت مانرى اليوم من نتاج نقدي عالمي , وينطبق ذلك على العلوم جمعاء , فما من فكر وجد من عدم . والخيط رفيع دقيق بين التبعية وبين التلاقي الفطري التأثير والتأثر .

أقول: علينا أن ننكب على نتاجنا الأدبي العربي تحليلاً وتقويماً وتقييماً , وسنجد أننا قد صنعنا لأنفسنا اتجاها نسير عليه , غير نشاز عن الروح العربي والوجدان الشعوري لأدبائنا ,

وإن تأثروا وتأثرنا بما لدى العالم من مشارب أدبنقدية . وأظننا على هذا الدرب نسير وإن لم نلحظ ذلك , فقط نجهد في العمل الدائب لرصد حركات السعي الأدبي كلها , فصيحها وعاميها , وسنصل لامحالة إلى منهج متكامل يرضي الفكر والذوق النقدي , والمزاج الأدبي , وما ينظم العمل في كلا الإبداعين .

في توجه آخر للبحث عن المنهج العربي النقدي , تحدث كثيرون عما يمكن أن نطلق عليه التخلف الفكري لدى الجمهور متلقي الأدب (ويتحقق الجمهور في مجموع الأفراد الذين تربطهم صلات , وتوحد بينهم آمال وآلام يغذيها الأدب فيخلق مشاعر اجتماعية مشبوبة لايحس القراء فيها أنهم معزولون عن نظرائهم ... ويؤمن الكاتب بها عن ثقة فيهم ... فليس الجمهور بالنسبة للكاتب إلا بمثابة الدعامة له ...على أن يكون الإنتاج الأدبي بعد ذلك غاية الكاتب في ذاته من ناحيته الفنية ومن جانبه الاجتماعي ...)10, فجعلوا نشاز الجمهور عن الأديب أحد المشكلات التي أعاقت التوصل إلى المنهج المنشود . وهذا الأمر يمكن أن نعده أحد معوقات النهوض النقدي الأصيل في الوطن العربي بشكل عام ؛ فمن أهم مرتكزات هذا النهوض , التجاوب بين الأدب والجمهور المتلقي المتذوق , أو عدم التجاوب عن وعي وإدراك , لأن هذه العملية هي إحدى الإضاءات التي يسترشد بها الناقد في نقده للأعمال الأدبية على اختلافها . ولقد تحدث محمد غنيمي هلال عن هذه القضية في عدد من مقالاته النقدية المنشورة بالمجلات الأدبية المصرية في النصف الثاني من القرن العشرين بشكل تفصيلي ؛ على أساس أن الالتفات الجدي لهذه القضية سيساهم

في حل أزمة المنهج النقدي العربي الحديث . فإذا عمد أصحاب الفكر الأدبنقدي على النهوض بالتوعية الفكرية للجمهور , سيرتقي إلى أعلى مستويات التذوق الأدبي أو حتى أوسطها , مما يولد عنده نزعة نقدية ستخدم بلا شك الحياة الأدبنقدية حتى وإن خلت من معظم مقومات الموضوعية أو هاجمت في موضوعية مابين أيديها من أدب . فالغاية من توطيد الصلة بين الكاتب والجمهور هي خلق حياة نشيطة وحيوية وفعالة تساهم مجرياتها في الترقي بالأدب والجمهور معا . قال هلال 11: (لن يستطيع الكتاب التوجه بدعوة ثورية أو مصلحة عامة لم يتهيأ لها جمهورهم .وهذه الحقيقة الجلية تبين خطر الجمهور في قيام الأدب برسالته المحددة الإنسانية , وتمثيله بذلك لروح عصره , وتوقيه الانحدار إلى الإسفاف والابتذال , أو التملق للعواطف الرخيصة . فالجمهور بمثابة الحارس الرشيد للإنتاج الفكري والفني , والراعي له في وقت معا ولذلك كان العمل على خلق الجمهور ونضجه ثقافيا وفنيا وتكوين رأي

عام له : أكبر عونا على تأدية الأدب رسالته , وحمل الكتَّاب على الاطلاع وإحكام عملهم فنيا والاستجابة لحاجات جمهورهم اجتماعيا) . وقد يكون هذا الشكل من العلاقة بين الكاتب والجمهور راسخا في كيان كل من خبر الأدب وعوالمه , غير أن رسوخه في وجدان هلال النقدي جاء بسبب إعجابه بصورة هذه العلاقة في الآداب العالمية على اختلاف مناهجها الفنية والفكرية . فكان هذا المنحى بعض مما أراد فرضه على الواقع العربي أخذا عن بطون المذاهب الغربية , على الرغم من أنه لاحاجة له للاتجاه به إلى هذا الاتجاه ؛ فهو كما أسلفنا أمر مستقر في روح الأدب والمتأدبين , لكنه يحتاج بين الفينة والأخرى إلى إيقاظ وإنعاش , لا إلى زرع وتأصيل جديدين .

هذا .. وتجدنا نتفق مع هذه الرسالة النقدية لبعث الحياة بين الكاتب والجمهور إذ أنها علاقة تكاملية يمد فيها كلٌ من الطرفين الآخر بمصدر قوة هو في أمس الحاجة إليه , وكل يعزز وجود الآخر ويزيدة قيمة وفعالية . والثمرة من نصيب الواقع الأدبنقدي لأنه إذا اتحد الكاتب والجمهور فكريا وتواصلوا فنيا وثقافيا , فذلك يعني ميلاد جماعة نقدية ستصل بنفسها يوما إلى التفرد بمذهب ما أو مذاهب عدة . وكلما اختلفت وتغايرت مطالب هذه الجماعات وتعددت رغباتها , كلما ولد ذلك مذهبا جديدا يحيا بكُتَّابه وجمهوره ثم يتولد آخر بثورة كتاب آخرين ومزاج جمهور آخر بمطالب وغايات أُخر . وهذه حقيقة لامحالة واقعة ومنطق فكري وأدبي مسلم به طالما سمت مطالب تلك الجماعات . ولايتحصل وعي الجمهور وترقّيه لمستوى أدبي وثقافي رفيع إلا بتربية وترقية أدائه الأكاديمي , ابتداء من خطواته التعليمية الأولى كما يرى هلال – وذلك صحيح . ولقد ظل أمر الجمهور يشغل الواقع النقدي إلى أُخريات القرن الماضي باعتباره جزء من القضية الأصل – البحث عن منهج أدبي . يؤكد ذلك ماقاله عزالدين إسماعيل عندما ناقش مهمة النقد والناقد , قال : (... إن من وظيفة النقد أن يساعد الجمهور على أن يصبح جمهورا قارئا بالمعنى الحقيقي , أي أن يصبح الجمهور القارئ الذي يستطيع أن يكون المعيار الواسع العريض لكل مايطرح عليه , فيقبل مايراه يستحق الاعتبار والنظر , ويرفض مادون ذلك . النقد . وبهذا تتحقق نقطة الذوق العام الذي ينبغي أن يكون هناك قدر منه يحكم ويضبط أحكام الناس فيما يطرح عليهم من أعمال أدبية)12 . ولقد تطرق محمد مندور عن دور الناقد في توجيه الجمهور الوجهة الفنية والحاح هذه المهمة ليؤدي الأدب مهمته على وجهها الأكمل , ذلك خلال عرضه لوظائف ما أسماه بالمنهج الآيدلوجي في الأدب والنقد13 .

ولاتزال جماعات النقاد هنا وهناك تنادي بالمذهب المميّز للأدب والنقد العربي الحديث , فمنهم من تبع هلالا في ضرورة ربط وجهتنا بالأخرى الأوروبية , ومنهم من حاول رسم خطى جديدة , ومنهم من يجند

نفسه لنقد هذا وذاك دون الإتيان بجديد . والأمر بعد كل ذلك لم يبدُ جديا لعدم ظهور أي نتاج لتلك النداءات بسبب طغيان النشاط النقدي الفردي على النشاط الجماعي .

وفي خضم ذلك كله , ظهر تيار أدبنقدي في تسعينيات القرن العشرين يبحث عن خصوصية جوهرية لاتكاد تنفصل عن القضية موضوع النقاش . ولقد تمثلت هذه الخصوصية في البحث عن سيطرة أو طغيان منهج إسلامي أدبي نقدي على يد عدد كبير من النقاد والأدباء المسلمين . وهذه الخصوصية قد لاتهمل الأسس الفنية للمذاهب الغربية , ولكنها لاتحجر الأدب عليها أو لأجلها طالما أن أصحاب هذه المذاهب أنفسهم تنقلوا بين أسس وأخرى دون تحجير لآدابهم . ولم يقصد أصحاب المنهج الإسلامي في الأدب والنقد أن يكون الأدب جهاديا أو عقديا ينادي بأهداف وقوانين الدين الإسلامي , وإنما قصدوا قيام مذهبهم على الروح والضمير الإسلامي بما له من أصول ومبادئ وجماليات حياتية قادرة على تشكيل الأدب تشكيلا يرضي ذلك الضمير . ولقد عمل رواد هذا الاتجاه في الجانب النقدي النظري والجانب التطبيقي , كما عمل أدباؤه على إنتاج مختلف ألوان الأدب . وبرأي أنهم قد لاقوا نجاحا كبيرا في التمكن من صياغة منهجهم على الرغم مما قوبلوا به من تحييد في بادئ أمرهم . ونطقهم بلسان رجل واحد هو الذي هيأ لهم أسباب الفلاح , بجانب إيمانهم بقضيتهم واستماتتهم في الذود عنها .

أقول : إن البحث عن نظرية أدبنقدية ليس بالأمر المعجز , كما أنه ليس بالأمر اليسير . فالنظرية في معناها الإبتدائي هي , مايقوم به الناقد من التنبيه على مسلك أدبي فني , عند شاعر ما أو عند مجموعة من الشعراء أو عند كل الشعراء , في زمان ما ومكان ما . وعندي – وواقع الحال – أن النقد الشعري هو صياغة الحراك الإبداعي الفني بكل وجهاته وترجماته الحياتية , بما يصنعه من تحليل للجزئيات والكليات داخل النص , والكشف عن ما تنوء به حنايا الشاعر ونفْسه ونفَسه , ومايترجم روحه وفكره وحياته . والنص الشعري بين يدي الناقد , أحجية يستمتع بفك طلاسمها القريبة والبعيدة , وفردها لمتذوق الأدب , بل ولصانعه . والناقد مفطور على امتلاك هذه الموهبة كما الشاعر . فلا يُـهيأ لأي كان ممارسة هذه المهارة الفنية التذوقية – وذلك معلوم – فتؤهله هذه المهارة لأن يقلب النص بين فكره وعلمه وخاطره , وحسه الفني بجماليات اللغة وفنونها , مستعينا بنظرته الفاحصة للسالب والموجب داخل النصوص . ويجاوب على كم من التساؤلات , يطرد توليده كلما توغل روحا وفكرا داخل النص . وتدور هذه التساؤلات في أغلبها حول : كيفية اختيار لفظه وصياغة معناه , وتجويد سبكه ومبناه , وانسياب موسيقاه , وتركيز إيحائه . ويستفهم خلال نقده عن كيف حدَّث الشاعر عن ذاته وعن ذات الآخر ؟ كيف أخرج تصاويره ؟ , كيف بث عاطفته ؟ هل تعددت دلالاته وتفرعت معانيه كبيت للعنكبوت, أم ظلت حبيسة المعنى الواحد واتسعت عليها الأسطر ؟ هل جوَّد الشاعر سبك عباراته في سياق فضفاض موحٍ , يتيح مساحات لخلجات الأنفس ؛ يترجم عن أمنها وروعاتها , مستقرها وانهزاماتها ؟ وهل وهل ... ؟

فما النقد الفني الأدبي والشعري خصوصا , غير البحث عن هذه الفنون التعبيرية الكلامية الإيحائية الجمالية . لايهم تسمية ما اسفرت عنه الإجابات بالرومانسية أو الرمزية , أو الواقعية , أو البنائية أو غير ذلك . فليس هذا هو محك العملية النقدية ؛ بل المحك في الوقوف على الجماليات اللغوية الدلالية والفنية للنص – على اتساع مفهوم فنية القول الشعري – مع اعتبار معنى الجمال ومدلوله . ولابأس بعد ذلك من توليد المصطلحات الأدبنقدية , وإطلاق التسميات من لدن ذلك كله . أي من ظاهر النص وباطنه . ليس التنظير النقدي هو مايولد النظرية , بل التطبيق هو المعوَّل عليه في صناعة النظرية ؛ فهي تولد من رحم

التطبيق الفني العلمي الممنهج الفاعل تأثراً وتأثيراً . ولنا أن نتفق ونختلف حول ذلك كله – بطبيعة الحال – وهكذا نثري الساحة النقدية وتتعدد المناهج والنظريات. وهذا كله ليس بالأمر المشكل لدى الناقد , بل هو من عظيم متعته الفكرية التذوقية . فقط نقول لا للتحجر الذوقي , لا لاحتكار الفكر والفن , لا للتبعية الفكرية والفنية ؛ سعيا وراء التقعيد التأصيلي . فالأدب عموماً والشعر خصوصاً , عوالم منفتحة على اللامحدود من الاحتمالات اللغوية والدلالية , أو الفنية الجمالية , أو الخيالية أو الفكرية , أو النفسية أو الاجتماعية الحياتية , أو غير ذلك كثير في عالم اللانهائيات الجمالية .

لذلك كله قلنا بأن البحث عن نظرية أدبنقدية ليس بالأمر المعجز , كما أنه ليس بالأمر اليسير.

وآخرا .. مايزال الاستفهام قائما ومازلنا نتجاذب فحواه يمينا ويسارا , ومازلنا نعقد المؤتمرات والندوات ونقيم المنتديات وتتلاقى الجماعات الأدبية والنقدية بطرق شتى , ويبقى الاستفهام ويبقى المجال مفتوحا لمحاولات الإجابة , وقد يكون في الاستفهام جواب , إذا تخلصنا جذريا من نهج الخضوع والركون والتسليم والإنقاص من قدرنا الأدبي والنقدي والانتفاض على سلوك التسوُّل الأدبنقدي .

نتائج الدراسة ...

1/ التحرر من متلازمة التبعية والتطوير في التعاطي مع المناهج النقدية الغربية .

2/ اعتبار منهجية التلاقي الفكري الإنساني والحرص على التمييز بينها وبين التبعية النقدية المذهبية للنقد الأوروبي الحديث .

3/ التركيز على قضية التوعية الفكرية والفنية والثقافية للجمهور متلقي الأدب .

4/ العمل الدائب علي الاجتهاد التنظيري مع جمع شتات الآراء والتوجهات النقدية في قالب تنظيري موحد أو عدد من القوالب , بدلا عن تركها جزرا متفرقة قد يغمرها فيضان النسيان .

5/ الاهتمام بجانب النقد التطبيقي , بل التعويل عليه في بحثنا عن منهج أدبي نقدي عربي , مع اهتمامنا بالجانب التنظيري . فالنظرية تولد من رحم التطبيق .

6/ التركيز على عملية نقد النقد لمقدرتها بل كفاءتها على تقييم المسيرة النقدية وتوجيهها وجهتها الصحيحة وتمييز مواطن التقصير لدرئها وتجنبها .

7/ الاهتمام بطرح التساؤلات حول واقعنا النقدي التي هي إجابات تقول بأننا هنا .

المراجع ...

1/ قضايا معاصرة في الأدب والنقد , محمد غنيمي هلال , دار النهضة مصر , بدون تاريخ , ص 5-23

2/ نفسه ص5-1

3/ قضايا معاصرة , ص20

4/ التيارات المعاصرة في النقد الأدبي , بدوي طبانة , دار المريخ للنشر , الرياض , ط3 1970 , ص28

5/ ندوة بعنوان الأدب أية قراءة , سلسلة بحوث ومناظرات , جامعة الحسن الثاني , المغرب , فبراير 1993 , ص172

6/ ندوة الأدب أية قراءة , ص172

7/نفسه ص173

8/ مجلة فصول , المجلد الأول , العدد3 , أبريل1981, ص241-257
9/ مجلة فصول , ص251
10/ قضايا معاصرة , مقال : بين الكاتب والجمهور ص 30
11/ نفسه ص28
12/ مجلة فصول , عدد3 , 1981 , ص257
13/ النقد والنقاد المعاصرون , محمد مندور , مكتبة نهضة مصر , ص234-237